

## رحلة إلى بلاد البوسنة والهرسك: النظر في المرأة [4/4]

**المقابر في سراييفو كالحدايق الأليفة تراها على جوانب الطرقات**

«نفق الحياة 12 كيلومتراً»، تقول اللافنة التي يمكنك أن تراها من نافذة الترامواي الرقم 3، صاحب الخط الأطول الذي يصل سراييفو بضواحيها. المكان ليس بعيد عن قلب العاصمة. النفق، الذي استطاع أن يمد بالنفط سراييفو المحاصرة، إضافة إلى بعض الأسلحة والغذاء، كان يمتد بطول 800 متر بارتفاع 160 سنتيمتراً وعرض

متر ونصف تقريباً، واصلًا بين المدينة المحاصرة والمقصوفة، ومطارها الذي كان تحت سيطرة قوات الأمم المتحدة، فيما كان الصرب يحيطون به من كل جانب. تتذكر المطار الصغير الذي حطت فيه الطائرة لدى وصولك، أحبته ذلك المطار، شبيه مطار بيروت قبل توسعته. مطار من دون ادعاءات سياحية

**لا يزال أهل البلاد يذكرون زيارة مفتي القدس قبل النكبة**

## في سراييفو: مقابر أليفة ونفق للحياة



المتحف في وسط سراييفو (لين معلوف)

«مول» ضخم، تتناثر شواهد القبور على مرجة من العشب تتخللها شجرات باسقة. تذكر أشجار البوسنة بمعنى كلمة باسقة، الذي كنت قد نسيت له لقللة الاستعمال. تماماً كما تدعي أنك اكتشفت معنى كلمة «همي» في قصيدة «جارك الغيث» حين رأيت مطر البوسنة الخفيف كالندى. متزهون يجلسون على مقاعد وسط المرجة. ربما لا يرغبون في إنفاق 6 ماركات بوسنية ثمناً لمجرد فنجان قهوة في مقهى المول المقابل. تتراح الزميلة إلى فكرة المقابر الأليفة، وتقول إنها ستوصي بان تدفن هنا، «لأتسلى بمرور العابرين». ثم تضحك للفكرة.

لا يزال يحرق قلب سراييفو كيف قصف الصرب المقابر العثمانية. «أي شيء له هوية ثقافية إسلامية قصفه الصرب»، يقول مدير دار الوثائق التاريخية سيد علي غوشيتش. ويعد على أصابعه: «دار الاستشراق المشهورة في أوروبا بمخطوطاتها النادرة، وبالذات التي تعود إلى الحقبة العثمانية، المكتبة القومية التي حرقتم ولم ترمم، كانت أجمل مبنى في سراييفو. بنتها النمسا بالأسلوب الأندلسي لمراعاة البوسنيين بعد احتلالهم عام 1878. مركز الوثائق والمخطوطات التاريخية. لهذا أيضاً قصفوا الجوامع، وحتى المقابر التاريخية. كانوا يدمرون التاريخ».

تتذكر رواية صديقة عن شاب تعرّف إليه في كونييا، مدينة المصوّف جلال الدين الرومي في تركيا. روى لها الشاب الذي كان وريث طريقة صوفية، كيف كان عليه النوم، كجزء من تدريبه، في قبر لليلة واحدة من أجل نزع خوفه من الموت. المقابر هنا، في سراييفو، كالحدايق الأليفة، تراها بين فينة وفينة على جوانب الطرقات العامة. يمرّ قريها الترامواي، والسيارات والناس. هنا في وسط سراييفو، ومقابل

ثم تمددت المدينة فصار في قلبها. لا يخاف البوسنيون من مقابرهم على ما يبدو. تفاعلاً بكثرة القديمة منها: بمعظمها قبور إسلامية بشواهد تعلوها عمامة للرجال ومن دون شيء للنساء. قد يكون من الأكثر صواباً القول إن البوسنيين القدامى لم يخافوا من الموت. ربما كان هذا تأثيراً جانبياً لإيمانهم وتأثرهم أيام الحكم العثماني بالحركة الصوفية.

الدولة بنموذجها الموحد. يقول إنها بنيت لسكن الرياضيين والعاملين في الألعاب الأولمبية الشتوية. لكنها بعد انتهاء الألعاب، اجتاحتها السكان الفقراء وبغوا فيها. مساحة البلاد تسمح بالأفراد الفقراء بعضهم فوق بعض، هنا في هذه الضاحية. هذا الانطباع يقودك إلى تذكر المقابر. ترى معظمها داخل المدينة على حافة الطرقات. مقابر أليفة من دون أسوار. كأنها كانت خارج المدينة

تباشير السياحة الحربية التي كانت قد بدأت في قانا، مباشرة بعد الحزرة الأولى. هناك أيضاً كانت «أفلام وثائقية» تباع عند مدخل المقبرة، جعلها مؤلف من شرائط إخبارية للتلفزيونات العالمية وأفلام هواة صورها أهل المنطقة. بعدها، كان علينا عبور النفق. أرض النفق أشبه بسكك أنفاق المناجم المصممة لتجري عليها عربات نقل صغيرة. أما أنبوب النفط، فمُنبت في الزاوية اليسرى أعلى النفق، في منأى عن المياه التي تتجمع على أرضه ما إن يهطل المطر. هممت بالمتابعة، لكنني جيتت بعد بضعة أمتار. أخرج إلى الحديقة التي تعلوها عريشة عنب، لأفاجأ بان الزملاء خرجوا بسرعة. فالنفق اليوم أصبح 30 متراً فقط لا 800 متر. لم يعد، لأسباب أمنية بالطبع، متصلاً بالمطار. يقول حارس إن صديقه صاحب المنزل أدين «كان كريماً، وقال من أجل بلادنا لا بأس إن استخدمت بيتي لحفر نفق. ولكن لا أحد بعد الحصار عرض عليه إصلاح المنزل أو تعويضاً».

لكن كيف كان جنود الأمم المتحدة يتساهلون في نقل البضائع من المطار المحاصر؟ يتقسم حارس قائلاً: «هناك أيضاً جنود أتراك وليس فقط روس وهولنديون». حرب أهلية صامتة داخل قوات الأمم المتحدة؟

لا تزال سراييفو تتذكر ألعابها الشتوية الأولمبية عام 1984. حتى إن شعار تلك الألعاب، وهو ثعلب ضاحك يحمل مزلاجين للتزلج، لا يزال يباع في بعض الدكاكين. لم تفهم سراييفو كيف تكون عاصمة للعالم في لحظة ما، ثم يسمح للحرب الأهلية باجتياحها.

في طريق العودة، يدلنا حارس على عمارات حديثة العهد تشبه مسانكن

في «أرضية» بيت أدين كولاخ حفر «نفق الحياة»



لا تزال سراييفو تتذكر ألعاب الشتوية الأولمبية عام 1984

وبالحديث عن النكبة، لا يزال أهل البلاد يذكرون زيارة مفتي القدس بداية الحرب العالمية الثانية وتأثير بعض البوسنيين المسلمين به، ما جعلهم يلتحقون بهتلر. تورط بعضهم بجرائم النازيين، فهاجروا ما إن انتصر الحلفاء. للمرة الأولى تفهم أن كنيّة «يوشناق» تعني ترجمة «بوسنيك» أي البوسني. غيرهم أيضاً هاجر بتأثير «بعض الأئمة الأغبياء الذين أفتوا بوجوب الهجرة إن كان الحاكم من الكفرة»، كما قال عدنان. منهم من لا يزال في بلاد الشام، ومنهم في تونس الخضراء. «لطف يوشناق؟ المغني؟ بالطبع نعرفه، جاء منذ سنوات وعمل دويتو مع مطرب محلي». يقول عاطف.

في شارع الفنون المزدهم بواجهات من أشغال يدوية موجهة بجمالها الدقيق، يعود المطر الخفيف إلى الهطول. تنساب موسيقى حزينة من محل مجوهرات مزينة. صوت رقيق كالندى يغني. «المغنية؟ هذه أميرة» تقول لك البائعة الأنيفة، فيروزهم الصغيرة. صحيح، أمير كوستاريكا المخرج من هنا، لكنهم لا يحبونه. يقولون إنه نسي أصله وغير دينة. تتذكر مواقفه المولوية للصرع خلال الحرب يبدو أنني سأغرق قريباً في تفاصيل الكراهية الأهلية التي لا أحبها. فلنتوقف هنا.

### تضامن عفوي

25 يورو هي قيمة المخالفة التي قد يحزرها لك الشرطي إذا ضبطك تعبر من غير معبر المشاة. العادة اللبنانية التي اكتسبتها قد تكلفك غالباً هنا. يوصيني باسمين بالأعب الطريق إلا في ممر المشاة. اتصل ليوصيني بذلك بعدما تركني عند التقاطع ولاحظ أنني أهمم بالعبور أمام الترامواي. ثم عاد ليتصل مرة أخرى «إذا ضبطك الشرطي، فأعطه عنوان الفندق، لأنه مضطر إلى أن يرسل الغرامة إلى مقر إقامتك، هكذا تستطيعين التنازل من الدفع، لأنك تكونين قد غادرت البوسنة». يضحك هذا التضامن العفوي بين الناس ضد غرامات السير في أي مكان. النقلات هنا رخيصة جداً. من سراييفو إلى

النفق لا يكلف الأمر إلا بطاقة ترامواي بماركين، ثم تستقل تاكسي بخمسة ماركات. أما من قلب سراييفو، فالشوار لا يكلف أكثر من عشرين ماركاً. لا أحد يساومك على السعر.